المحاضرة الثالثة: الخطاب عند الفلاسفة

مفهوم الخطاب في الفلسفة:

يتميز مفهوم "الخطاب(Discourse)" بمركزيته وأهميته الفائقة في تاريخ الفلسفة. لقد شهد هذا المفهوم تحولًا جوهريًا في دلالاته على مر العصور؛ فبينما كان يُنظر إليه في الفلسفة الكلاسيكية على أنه وسيلة للإقناع وبلوغ الحقيقة، تطور ليصبح في الفكر ما بعد الحداثي بنية للسلطة والمعرفة، قبل أن يتحول إلى مجال للتواصل العقلاني والبحث عن التفاهم في الفلسفة المعاصرة.

الخطاب في الفلسفة اليونانية: فن الإقناع والبحث عن الحقيقة

في بداياته مع فلاسفة اليونان، ارتبط الخطاب بشكل وثيق بفن "الخطابة (Rhetoric) " و"الجدل.(Dialectic) "

السفسطائيون: كان الخطاب عند السفسطائيين، أمثال جورجياس، مجرد فن إقناعي محض. لقد تمحورت غايتهم حول التأثير في الجمهور وتوجيه آرائهم من خلال إتقان التلاعب اللغوي والبلاغي، متجاوزين بذلك مسألة صدق الحجة من عدمه. لذا، رأوا الخطاب كأداة فعالة للسيطرة على النفوس وقيادتها.

سقراط وأفلاطون: على النقيض تمامًا، رفض سقراط وأفلاطون المنحى السفسطائي للخطاب بشدة. فقد اعتبرا الخطاب وسيلة أساسية للارتقاء إلى المعرفة وإدراك الحقيقة. وبالنسبة لأفلاطون تحديدًا، فإن الخطاب الأصيل هو "الجدل" (الديالكتيك)، وهو حوار عقلاني يسعى لتخطي الآراء السطحية والاعتقادات الظنية وصولًا إلى الماهيات والأفكار الثابتة. وهكذا، فإن أي خطابة لا ترتكز على أساس معرفي حقيقي لا تعدو كونها مجرد تملق مضلل.

أرسطو: قدم أرسطو تحليلًا منهجيًا للخطاب في كتابه "فن الخطابة"، حيث ميز بين ثلاثة أنواع رئيسية من الخطاب بناءً على غاياتها:

الخطاب الاستشاري (التشاوري): غايته تحديد النافع والضار في أمور المستقبل (سياسي).

الخطاب القضائي :غايته تحديد العدل والظلم في أمور الماضي (قانوني).

الخطاب التفاخري (المدح والذم): غايته تحديد الجميل والقبيح في أمور الحاضر (احتفالي).

وبذلك، وضع أرسطو أسسًا لدراسة الخطاب كفن وعلم له قواعده وأساليبه المنطقية والبلاغية.

الخطاب في فلسفة ما بعد الحداثة:

أحدث فلاسفة ما بعد الحداثة، وفي طليعتهم الفرنسي ميشيل فوكو، نقلة نوعية جذرية في فهم الخطاب. فبعد أن كان يُنظر إليه كمجموعة من الكلمات أو الجمل، تحول إلى نظام متكامل يُحدد بشكل فعلي حدود ما يمكن التفكير فيه والتعبير عنه قولًا في سياق تاريخي محدد.

يرى فوكو أن الخطاب يتجاوز كونه مجرد انعكاس أو أداة للتعبير عن الواقع؛ بل هو **ممارسة اجتماعية نشطة** تعمل على تشكيل وإنتاج هذا الواقع نفسه. فالخطاب هو الذي يخلق ويُكوّن الموضوعات التي يدور حولها (كالجنون، المرض، والجريمة)، وفي الوقت ذاته يُنتج الذوات المرتبطة بها (كالطبيب، المجنون، والمجرم).

أهم الأفكار في مفهوم فوكو للخطاب هي:

1. **الطبيعة التكوينية للخطاب:** الخطاب يُنشئ ويُكوّن المفاهيم والجوانب الاجتماعية بدلًا من أن يعكسها فقط.
2. **الخطاب والسلطة:** السلطة ليست كيانًا يُمتلك، بل هي **نسيج من العلاقات** يتجسد في الخطاب. يُعتبر الخطاب الناقل الأساسي الذي يسمح للسلطة بالتغلغل وفرض الهيمنة بطرق خفية، بعيدًا عن الإكراه المباشر.
3. **الخطاب والمعرفة:** لا توجد معرفة محايدة .كل معرفة هي نتاج لتشكيلة خطابية معينة، وبالتالي فهي مرتبطة بعلاقات السلطة.
4. **الممارسة الخطابية:** هي مجموعة القواعد التاريخية والموضوعية التي تحدد في فترة زمنية معينة شروط إنتاج المنطوقات والمعارف.

الخطاب في الفلسفة المعاصرة: أخلاقيات التواصل

يقدم الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس، وهو من أبرز وجوه مدرسة فرانكفورت النقدية، منظورًا مختلفًا للخطاب يركز على بعده التواصلي والأخلاقي.

يرى هابرماس أن الخطاب هو أساس "الفعل التواصلي"، وهو فعل لغوي يهدف إلى تحقيق التفاهم والإجماع بين المشاركين .على عكس الفعل الاستراتيجي الذي يهدف إلى تحقيق مصلحة ذاتية، يهدف الفعل التواصلي إلى الوصول إلى اتفاق عقلاني.

يطور هابرماس ما يُعرف بـ"أخلاقيات الخطاب" أو "أخلاقيات المناقشة"، والتي تقوم على فكرة أن المعايير الأخلاقية الصحيحة هي تلك التي يمكن أن يتفق عليها جميع المشاركين في خطاب عقلاني حر ومتكافئ .وشروط هذا الخطاب المثالي هي:

الشمولية :يجب أن يكون لكل شخص قادر على الكلام والفعل الحق في المشاركة.

الحرية :يحق للجميع التعبير عن مواقفهم ورغباتهم واحتياجاتهم.

الخلو من الإكراه :لا يجوز منع أي متحدث من ممارسة حقوقه من خلال الإكراه الداخلي أو الخارجي.

بهذا، يعيد هابرماس للخطاب وظيفته العقلانية، لا كأداة للوصول إلى حقيقة ميتافيزيقية (كما عند أفلاطون)، بل كأساس لبناء التوافق الاجتماعي والأخلاقي في المجتمعات الحديثة على قاعدة الحجة الأقوى.

هيجل:

يشكّل الخطاب الفلسفي عند هيجل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel, 1770–1831)جزءاً محورياً وأساسياً من تيار المثالية الألمانية، ويتميز بكونه نسقياً (Systematic) وجدلياً (Dialectical)ويسعى إلى إدراك المطلق (The Absolute)أو الروح المطلق.

وأبرز ملامح هذا الخطاب:

1. النسقية المطلقة:(Absolute Systematism)

يؤمن هيجل بأن الحقيقة تتخذ شكل النسق الشامل، وأن الفلسفة لا يمكن أن تكون حقيقية إلا إذا كانت نظاماً مترابطاً.

هدفه هو بناء نظام فلسفي يغطي كل مجالات الواقع والفكر، من المنطق إلى الطبيعة إلى الروح (الذاتية، الموضوعية، المطلقة).

2. المنهج الجدلي:(Dialectical Method)

الجدل هو المحرك الأساسي للفكر والواقع والتاريخ.

يرى هيجل أن الفكرة أو المفهوم) الـ (Thesis يحمل في داخله نقيضه) الـ(Antithesis ، ومن خلال صراع وتوسط بينهما، ينشأ مركب أعلى وأكثر اكتمالاً) الـ(Synthesis ، وهو ما يسميه "النفي المؤكد" أو "النفي الذي يتم الحفاظ عليه.(Aufhebung) "

هذه الحركة الجدلية هي التي تفسر تطور الوعي، وتاريخ الفلسفة، والحركة التاريخية بصفة عامة.

3. العقلانية والمثالية المطلقة:(Absolute Idealism)

الشعار الأساسي لهيجل هو" :كل ما هو عقلي هو واقعي، وكل ما هو واقعي هو عقلي."
يرى أن الحقيقة النهائية هي الفكرة المطلقة (Absolute Idea)أو الروح المطلق (Absolute Spirit)، وهو الوعي بالذات الذي يصل إليه الفكر في نهاية تطوره.
الفلسفة تسعى إلى إدراك هذا المضمون الجوهري أو الوحي الواقعي للفكرة الإلهية وتبرير الواقع الحقيقي للأشياء.

4. التاريخ والحرية:(History and Freedom)

فلسفة هيجل للتاريخ تركز على فكرة أن التاريخ هو تقدم في وعي الروح بالحرية.
يرى أن العقل الكلي يتجسد ويحقق ذاته تدريجياً عبر مراحل التاريخ المختلفة، وأن الدولة في شكلها الأعلى هي تجسيد للإرادة المقدسة والفكرة الأخلاقية.

5. المعرفة كحركة:(Knowledge as Movement)

المعرفة الفلسفية عند هيجل ليست مجرد وقوف على حقائق ثابتة، بل هي دائماً في حالة حركة فكرية وفق منطقها الداخلي، حيث تؤدي الأفكار إلى نفي نفسها والانتقال إلى أفكار أكثر عمقاً وشمولاً (كما في كتابه "فينومينولوجيا الروح").
باختصار، الخطاب الفلسفي الهيجلي هو خطاب يسعى إلى الشمول والتوفيق، حيث يستخدم المنهج الجدلي لإظهار أن كل شيء في الوجود وفي الفكر يتحرك ويتطور نحو تحقيق المطلق، الذي هو عقلاني وواقعي في آن واحد.